مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(8)، العدد (2)، السنة (2023)، ص 59-69
ISSN: 2602-5566 EISSN:2716-8999

جينيالوجيا البيئة العميقة في الفكر الشرقي القديم

The Genealogy of The Deep Ecology in Ancient Near Eastern Thought

عادل مقرود [1*] - فوزية شراد [2]

[1] مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة باتنة1 (الجزائر)، adil.megroud@univ-batna.dz .

[2] مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة باتنة1 (الجزائر)، fouzia.roza@gmail.com .

تاريخ الإرسال: 2022/06/13 تاريخ القبول:2023/06/13

ملخص:

يُعالج هذا البحث مشكلة البيئة العميقة التي تُعد أحد أهم المذاهب البيئية المعاصرة، إذ يسعى للعودة إلى أصولها المعرفية الأولى، وعلاقتها بالحضارات الشرقية القديمة، والوقوف على مواطن التشابه بينها، ومدى تقارب وجهات النظر الاصلاحية والحقوقية بين الشرق والغرب، أين يُصبح همُّ الحفاظ على الموطن الطبيعي همّاً وقاسماً مشتركاً، و قد أُستعمل في هذا البحث المنهج المقارن الذي يعرض أوجه الاختلاف والتشابه، والعلاقة التكاملية بين فكرة البيئة العميقة والفكر الشرقي القديم، والمنهج التاريخي الذي يتتبع الأفكار البيئية الشرقية القديمة ويحاول تصنيفها وضبط محلها من قيم آرني نايس Aren Naess والبيئة العميقة بصفة عامة، أما النتائج المتوصل إليها فتمثلت في أن وجهة النظر الشرقية تجاه البيئة كانت وجهة نظر فعّالة في تطبيقها لأنها حافظت على الطبيعة وكانت تحمل الجوهر نفسه مع البيئة العميقة، أي يُمكن للبيئة العميقة أن تكون حلاً فعالاً إذا طُبقت على أرض الواقع.

الكلمات المفتاحية: بيئة عميقة؛ حضارات شرقية؛ أخلاقيات؛ بيئة.

Abstract

This paper deals with the problem of deep ecology, which is one of the most This research addresses the problem of the deep ecology, which is one of the most important contemporary ecological doctrines, as it seeks to return to its first knowledge bases, its relationship with ancient eastern civilizations, and to find out the similarities between them, and the extent of the convergence of reformist and legal views between East and West, Where the concern of preserving the natural habitat becomes a concern and a common denominator. The comparative approach was used in this research, which presents the differences and similarities, and the complementary relationship between the idea of the deep environment and the ancient eastern thought, and the historical approach that traces the ancient eastern ecological ideas and tries to classify them and adjust their place from the values of Arne Naess and the deep ecology in general. As for the results reached, it was represented that the eastern point of view towards the ecology was an effective point of view in its application because it preserved nature and carried the same essence with the deep environment, meaning that the deep environment can be an effective solution if applied on the ground.

keyword; Deep ecology; Eastern Civilizations; Ethics ; Ecology.

[*] المؤلف المرسل.

1- مقدمة

البيئة هي الموطن الذي يجمع كل الأجناس سواءً البشرية أو غيرها من المخلوقات، من هنا كانت الحيّز الذي تفرض الحكمة السعي للحفاظ عليه، لأن بقاءه من بقاء من فيه، لكن هذه الأهمية البالغة لم تُحترم في العصر الحديث ولا المعاصر إذا بات مهدداً أكثر من غيره، وباتت حالته تدق ناقوس الخطر، وتُهدّد مستقبل الأجيال القادمة بفعل تهددها، من هنا تعالت الأصوات الواعية والحاسة بقيمة الضرر الذي سيطال مستقبل الحياة فظهر عقلاء على كل الأصعدة، وفلسفات خاصة تحاول أن تضع الهدنة، بين يد الإنسان المُخربة والبيئة الجريحة، فظهرت فلسفات مهمة وتيارات ومذاهب تتحمل مسؤولية الدفاع على البيئة، وقد يكون "أرني نايس Aren Naess "من أشهرهم، خاصة وأنه يتبنى فكرة البيئة العميقة Deep Ecology هذه الفلسفة التي اشتهرت وذاع صيتها، والتي تعتقد أن الإنسان كائن مهم في الوجود الطبيعي، وليس كل الطبيعة، أي آمنت بالمساواة الإيكولوجية بين المخلوقات، حتى اعتبرها الكثير من المتتبعين الترياق الحقيقي، والبلسم الشافي للأزمة البيئة المعاصرة.

من هنا نُسب الهم البيئي لصاحبه "النرويجي"، ونسبت كل الدراسات جذور النظرية إلى مصادر غربية سواء من المدرسة الرومانسية في الأدب، أو بعض الدراسات الفلسفية الغربية الحديثة، متناسية بهذا أي رافد آخر، لكن هذه النزعة البيئية التي لا تعترف بمركز في البيئة، ولا تسلُط الإنسان على العالم الطبيعي موجودة وبقوة في العديد من الثقافات والطقوس الشرقية القديمة.

وقد يقودنا هذا الحكم إلى إثارة أزمة الأصل أو الأرخي الذي طالما كان الإشكال الأشهر عبر العصور، خاصة ذلك الذي تناول أزمة الفلسفة اليونانية بين التأصيل الشرقي والمعجزة اليونانية، وهذا البحث لا يدخل في هذا السياق أي لا يبحث على التأصيل من أجل التباهي بالسبق، وإثارة النرجسية العرقية بل يحاول أن يقف على أوجه الترابط بين أوجه التشابه الموجودة بين فلسفات الشرق، والبيئة العميقة "النايسية" حتى نعرف الطريقة المثلى التي نتعامل بها مع العالم الطبيعي ونحافظ بها على البيئة، من هنا يمكن طرح المشكلة التالية: أين تكمن مواطن تأثر البيئة العميقة بالفلسفات الشرقية البيئية القديمة؟.

أما الفرضيات التي يمكن أن ننتظرها من البحث فهي وجود نزعة بيئية خصبة في فلسفة "آرني نايس"، وهذه النزعة قد تكون متأثرة بأخرى آتية من الشق الأخر من الكرة الأرضية، ونقصد بذلك الحضارات الشرقية، ولكن قد نقف على اختلاف صريح في طبيعة العلاقة القائمة بين الإنسان والبيئة إذ نجدها في مضمون البيئة العميقة عبارة عن علاقة متوترة لأن الإنسان عاث

فيها خراباً، فكانت هنا طبيعة الخطاب تنادي بالهدنة، عكس الحضارات الشرقية التي كانت تنادي بالسماحة.

أما المناهج التي يمكن أن نستعملها في بحثنا فهي متنوعة بين المنهج المقارن الذي يسمح لنا بالوقوف على مواطن الاختلاف والتشابه والتداخل بين هذه الفلسفة الغربية المعاصرة والفلسفات الشرقية السالفة، أضف إلى ذلك إلى جينيالوجيا البيئة العميقة في الأصل الشرقي.

أما النتائج التي يمكن أن نتوصل إليها فتتمثل في أن فلسفة البيئة العميقة قد تأثرت بالحضارات الشرقية سواء عن قصد من صاحبها أو من غير قصد، وقد يكون الحل المعاصر للأزمة البيئية موجود في ثنايا الخطابات الشرقية التي تبدو للوهلة الأولى أنها قديمة وبالية، لكن تحمل في طياتها ما يجعلها قادرة على تجاوز المأزق الطبيعي المعاصر لهذا فالتأثر بها مشروع.

2- الإطار الزماني والمكاني للبيئة العميقة، ومفهومها:

من الضروري تحديد الإطار الزماني للبيئة العميقة حتى نعرف الفرق الواسع بين الأزمنة، والتقارب الواضح بين الأفكار، لأن الفكر لا يموت بموت أهله وعقوله، كما يستوجب علينا أن نتعرف على الإطار المكاني حتى نعرف البعد الجغرافي بين هذه الفلسفة الغربية من الفلسفات الشرقية، وهذا حتى نُثبت إمكانية تلاقح وتعاون الأمم والأمصار مهما بلغ بعدها المكاني، ومن اللازم كذلك الوقوف على المفهوم والمضمون المعرفي لهذه الفلسفة البيئة، حتى يتسنى لنا القيام بمقارنة واضحة ذات دقة عالية بينها وبين فلسفات سابقة عليها.

2-1- الإطار الزماني والمكاني للبيئة العميقة

تم ابتكار هذا المصطلح "البيئة العميقة Deep Ecology "من طرف الفيلسوف النرويجي أرني نايس Aren Naess (1912/2009) وهذا في مقال نشر في المجلة النرويجية inquiry سنة 1973 (ب ستيربا، 2009، صفحة 65).

من هنا يتبيّن أنّ الإطار المكاني هو النرويج، أي أوروبا قلب الفكر الغربي، وموطن الحضارة الغربية الأم "اليونان"، لكن الملاحظ يجد أن دولة النرويج لم تكن في مقدمة البلدان الأوربية المولعة بالإنتاج الفلسفي مقارنة بدول أخرى كألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا...، وهذا دليل على أنّ الهم البيئي ليس هماً محلياً، بقدر ما هو هم عالمي لا ينتظر العراقة والتأصيل ليتخمر.

كما يلاحظ أيضاً أن هذه المجلة النرويجية inquiry التي كانت إلى وقت ما مغمورة، صارت تُصدّر الفكر البيئي بسبب هذا الإنجاز المحلي الذي تحوّل إلى مفهوم عالمي، وهذا إنّ دل على شيئاً فإنما يدل على أن الفكر لا يعترف بموطن ولا يعترف بجنس متفوق بحد ذاته، ولا عرق مهيأً للإبداع قبل غيره.

أما الإطار الزماني لهذه الفكرة البيئية فقد حدد بسنة 1973 وهو تاريخ حديث إذا وضعناه على سُلم الأزمنة، أي أن البشرية مرت قبل هذا التاريخ بمراحل كثيرة مثلت منعطفات حادة في

تاريخ العلم، وتاريخ المنجازات المادية التي كانت تُمثل عند عُشاقها منجازات حضارية عميقة، إذ بدأت بعصر النهضة أين توجه الإنسان إلى الفن والأدب، ثم عصر الثورة الصناعية أين باتت الطبيعة مورد هام للمواد الأولوية، فقد كانت وسيلة لإشباع الغرور وتلبية الحاجيات الصناعية، لتصل إلى الكشوفات الجغرافية أين صال الإنسان وجال في مواطن لم تكن معروفة من قبل، ولم تدخلها يد التحوير، فكان الفساد يتوغل ويتغلل بطريقة سرطانية لا يمكن السيطرة عليها.

وعلى هذا كانت الكتابات التي تلت تلك الحقب الزمنية عبارة عن رد فعل مهم على ما هو منتشر من أزمات بيئية وفساد طبيعي حاد، أين بزغت مذاهب إيكولوجية جديدة انتشرت في سماء الوسط الايتقي الغربي مثل: إيكولوجية بيتر سنجر Peter Singer (1946/....) التي تسعى لتحرير الحيوان من مخيال الإيتقا القديمة التي تعتبره أحد وسائل العيش، وليس كائن مستقل بذاته يسعى للعيش، أو إيكولوجية دانيال كالاهان Daniel Callahan (2019/1930) التي تبنت أخلاق المسؤولية التي تعالج بدورها قضية التسارع المرعب نحو التصنيع الذي يستنزف الموارد الطبيعية، وهذا لا يضمن حياة عادية للأجيال القادمة، من هنا فتحمل المسؤولية في الحاضر هو ضمان لمستقبل الأجيال في المستقبل، بالإضافة إلى ذلك هناك فلسفات أخرى لا يسعنا المقام لذكرها.

2-2- مفهوم البيئة العميقة

ينقسم هذا المصطلح من حيث البنية اللغوية إلى شطرين (بيئة، وعميقة) أما البيئة فهي مشتقة من الفعل "بوأ " ثم " تبوأ " وقد وضح هذا المعنى ابن منظور في لسان العرب لما تطرق إلى معنى كلمة باء، وهذا بمعنى باء إلى الشيء يبوء، بواءً أي رجع وتبوأ المنزل أي نزل وأقام فيه (منظور، د.س، صفحة 284).

أما مصطلح العميق فهو من عمق أي بعد في الأسفل، وغار إلى حد بعيد، والمقصود منه كذلك الشدة فنقول عمق الألم زاد وشد (منظور، د.س، صفحة 310).

من هنا يظهر أنّ الجمع بين الطرفين يقصد به المنزل الغائر أو المكان الشديد وهذا شرح يحتاج لتوضيح اصطلاحي مثل ما يؤكده صاحبه أرني نايس Aren Naess في مقاله السالف الذكر الذي عُنون: "الضحل والعميق حركات ايكولوجية بعيدة المدى"، ويقصد فيه أنّ الإيكولوجيا العميقة هي أن نتجاوز النظرة الضحلة التي شخصها العلماء واعتقدوا أن الحل الأنسب هو الحفاظ على الجنس البشري وضمان حياته الرغدة وسلامته الصحية (النشار، 2017، صفحة 13).

أي أنّ هذه الفلسفة هي إصلاح مُناقض للإصلاح السائد، وهي ثورة ضد الثورات السائدة، لأنها تعتقد أن ما يُحاول أن يُصلح به الفلاسفة حال البيئة هو نوع من الفساد دون أن يدروا، فهم يركزون على مصالح الإنسان وضمان مقومات عيشه دون مراعاة حالة الموطن وباقي

المخلوقات، لكن هذا لن يتحقق ودون التفكير في الصالح العام ولن تتمكن الإنسانية من ضمان بقائها دون ضمان بقاء التنوع البيئي الحي، أي أنّ البحث على العمق في العلاقة ليس خياراً بقدر ما وهو شرط من شروط البقاء.

كما أنها تعتقد أن تدخل يد الإنسان في هذا النظام هو طريق إلى الفساد مهما بلغ من الحكمة ومهما كانت النية الطيبة وراءه، فكل كائن له دوره ولو كان يبدو ضاراً للحياة الطبيعية ويقول نايس: «إن صيد الوحوش، أو تطهير المزارع من الطيور التي تُفسد الزرع، أو اقتلاع الحشائش التي تبدو ضارة، يبدو في ظاهره تطهيراً للفساد البيئي لكن في حقيقة الأمر، هذا يخل بالدورة البيئية ويُنبئ بنقص أحد الوظائف»(Naess, 2008, p. 91)

من هنا فإنّ النّظرة النايسية تُؤكد أن تدخل البشر مرفوض لأبعد الحدود، لأنه عندما يتدخل فإنه يُغيّر في عالم مُحكم التسيير، ونظام مُحكم التنظيم، فقد خُلق ليعيش وفق الطبيعية ولم يُخلق ليغير فيها، وهذا هو العمق المنشود في فلسفته البيئية، أي أن الرجل يدعو إلى تبصراً بعيداً ولا يدعو للتوقف أمام المظاهر.

ليضيف "آرني نايس" أهم تعريف للإيكولوجيا العميقة وهذا في قوله: «الفعل السليم هو أن نتعامل مع الطبيعة كمركز في حد ذاتها ولا نتعامل معها كمركز نُديرها» (زيمرمان و وآخرون، 2006، صفحة 54). ومن هنا تظهر أحكام الفيلسوف بمحاربة المركزية البشرية، التي استفحلت في العصر الحديث وباتت الجوهر الأساسي والسمة الغالبة في الفكر الحداثي.

أي يمكن قراءة الفلسفة البيئية العميقة بأنها ثورة على الفكر الحداثي بصفة عامة، هذا الأخير الذي أله العقل البشري، وسيّد الإنسان وأعطاه الحق المطلق في التصرف بالعالم المحيط به دون مراعاة ما آل إليه فعله هذا، الذي عجل بانتشار الفساد.

3 – جذور البيئية العميقة في الحاضرات الشرقية المختلفة:

بعد عرض مضمون البيئة العميقة يمكن البحث على أصولها في الحضارات الشرقية، وهذا التأصيل المعرفي الذي يخضع لعمل علمي قائم على حفريات جينيالوجية في المتن الفلسفي هدفه الوقوف على مواطن التشابه بين الأفكار.

3-1- جذور البيئة العميقة في الحضارة المصرية:

عُرفت الحضارات الشرقية القديمة بقيّمها، التي كانت تُمثل الدستور الأول في التنظيم العام للحياة ونجد أن مصر القديمة لا تخرج على هذا العرف، إذ عمت القيم فيها ومست كل مجالات الحياة، حتى البيئية كانت من صميم اهتمام أهل مصر القديمة، وكان اهتمامهم مسهباً بثروات الوطن لأنهم تجاوزا من جهة مفارقة إنشاء حضارة قوية تستنزف ثروات البيئة من جهة،

وتقديسهم للبيئة وبعض مظاهرها من جهة أخرى، فحدث وأن تداخلت مظاهر الاهتمام والاستغلال والتقديس.

وقد بين "إيان ج.سيمونز Simons " كيف كانت الحضارة المصرية تستغل البيئة لصالحها استغلالاً حضاريا معقلنا فقال: "كان الشعب المصري محترفاً في الاستغلال لأنه استثمر في مساحاته الخصبة، وفي مياه النيل ورياح المواسم المختلفة، كما استفاد من الثروات الحيوانية البرية والبحرية منها» (ج . سيمونز، 1997، صفحة 25).

هذا الاستغلال لم يلغ التطابق الصريح بين تعاليم المصريين القدماء والبيئة العميقة فيظهر في تعويذة البراءة أو ما يعرف بإعلان المتوفي الذي يصرح به الميت في أول لقاء مع الآلهة، أين يجعل البيئة محوره وموضوعه الأساسي ويظهر في قول المُعترف :" إنني أحترم جميع الكائنات الحية، فلم أحرم الماشية من عشبها، ولم أصنع أفخاخ لعصافير الآلهة، ولم أصطاد السمك من بحيرات الآلهة، ولم أبني سداً أمام ماء جاري، ولم أطُفأ نار مُتأججة ، ولم أمنع الماء في موسمه» (طبوزادة، 2004، صفحة 135).

من خلال هذه التعاليم والطقوس يظهر أنّ الإنسان المصري لم يكن سيداً بقدر ما كان جزءاً من الطبيعة أي غابت مركزيته تماماً وأعلن مسؤوليته المطلقة اتجاهها.

وها هو النيل يُناجى ويُهللُ له، ويُقال فيه المديح والثناء، وهذا يقطع الشك باليقين ويثبت مدى أهميته لدى العامة المصرية فقد تجذرت في عمق الحضارة المصرية أناشيد تتغنى بالنيل، وتراتيل تمجد قوته وهوله وظهرت أغاني تحذر من غضبه وتوقفه عن العطاء. وأخرى تتغنى بالفصول الأربعة، وأخرى تُلح على الاهتمام بالعصافير الضعيفة، وأخرى تُلح على الرحمة بالخنزير والذئب (لود فيغ، 2017، صفحة 459). هذه التعاليم هي تعاليم عميقة بالضرورة لأنها تدعو الإنسان للمهادنة مع كل مظاهر الحياة وتدعوه لقبول الطبيعة كما هي، وترفض كل أنواع التسلط لتجعل من البيئة العميقة تابعاً لسبق شرقي قديم.

2-3- جذور البيئة العميقة في الحضارة الصينية:

لقد كانت البيئة أحد مجالات ومحاور القيمة عند الصينين القدماء، لدرجة أنه وصفها الطاوبون ـ وهم أتباع لاؤتسي ـ الطبيعة بالمنظمة والكاملة وهذا من خلال تعرضهم لمشكلة الحتمية في الطبيعة (لاوتسه، 1995، صفحة 17) ، وقد تكون محاولتهم هذه أول إشارة لهذا المفهوم العلمي الاستقرائي عبر التاريخ، لأنهم كانوا على إيمان تام بأن العالم تسوده الضرورة والتناغم الطبيعي المتسق، والمنتظم والمترابط بين الأشياء والعلل، أي هناك غياب كلي للصدفة والعبث من هذا الوجود.

من خلال هذه الفكرة يظهر أن الفكر الطاوي تفطن لقيمة كل الكائنات على اختلاف قوتها وحجمها ودورها في الطبيعة، لهذا فالعالم البيئي لا يمكنه أن يعرف السلامة والدوام إلا إذا كان

هناك توازن حقيقي بين كل الكائنات، وإذا حدث هذا التناغم بين أدوار كل المخلوقات وصلت البيئة إلى حالة الرخاء والهناء، وهذه هي الفكرة الأساسية التي تتمحور حولها البيئة العميقة.

كما أنّ الفكر الطاوي تصدى فكرة مركزية الإنسان فناقض وناهض زعمها الخطير الذي جسد نرجسية الإنسان القاتلة لجنسه فهو كمن يسعى لحتفه بظلفه، فقد أكد لاوتسي أنّ الإنسان هو الكائن العادي الذي يدخل في تشكيل البيئة كعنصر فعاّل وليس عنصر مسيطراً، فيصبح جزءاً من الطبيعة وليس كل الطبيعة وهذا في قوله: «أتحسب أنك قادراً على تولي أمر العالم وتحسينه؟،أنا لا أرى ذلك ممكناً، العالم مقدس ولا يسعك تحسينه، ولو حاولت تغيره لكان خراباً» (لاوتسه، 1995، صفحة 187).

وقد تكون القصة الشهيرة من التراث الصيني أحد المواقف الملخصة للفلسفة البيئة الصينية، ومضمونها أن سيداً نبيلاً أقام مأدبة في قصره وحضرها ألف مدعو، وكان يجلس في وسطهم فصارت أصناف السمك والطرائد تمر من أمامه، فقال: كم هي سخية السماء على الإنسان، تصنع خمسة أصناف من القمح للنمو وتجلب قبائل مزعنفة ومريشة لمتعتنا، وقد صفق لذلك جميع الضيوف ما عدا صبي كان في الثانية عشرة من عمره فقال: إنها ليست كما قال سيدي إن العشرة آلاف مخلوق في الكون ونحن ننتمي إليها، ولا يوجد بينها وضيع ولا نبيل، إنه فقط بسبب القوة والمكر يسود الواحد على الآخر، ولا واحد أُنتج لخدمة الآخر، فالإنسان يمسك ويأكل ما هو مناسب لطعامه، ولكن كيف يمكن اعتبار البعوض الذي يمص دمه، أو النمور التي تلتهم لحمه، هل نقول عليها أن الإنسان أنتجته السماء كي تتغذى عليه هذه المخلوقات (النشار، 2017، صفحة 09).

مثل هكذا قصص هي من تُكّون المخيال العامي أي تكّون الثقافة الشعبية وتنقل حكم ذات مغزى، والحكمة التي نقلتها هذه القصة أن الإنسان ليس مركز الكون وأن السماء لم تخلق الكون كخدمة له بقدر ما جعلته كائناً مثل غيره لا يعلو عنهم ولا يتفوق على جنسهم، وهذه الفكرة من الأفكار الجوهرية في الفلسفية البيئة العميقة أي هنا يحدث التقاطع بين المفهوم الطاوي والمفهوم النايسي.

3-3- جذور البيئة العميقة في الحضرة الهندية القديمة:

اهتمت الحضارة الهندية على غرار غيرها من الحضارات الشرقية بالجانب الأخلاقي والقيمي في شتى مجالات الحياة، حتى طغى المعتقد الروحي على كل جديد فيها، وكانت المعتقدات الوجدانية تُؤسس لعلاقة جيدة بين البيئة والإنسان، بعيدة على العلاقة الإستنزافية ذات البعد المادي، والمعتقد الملموس الذي يُؤمن بالاستهلاك والثروة المرئية فقط، كما أنه جعل العالم البيئي يعيش عصراً ذهبياً ملؤه الاحترام والتقديس، فكانت الرؤى البيئية الهندية نموذج على الاحتكاك السليم بين البشر وبيئتهم.

لتوضيح هذا الحكم نستدل ببعض الأحكام الدينية الهندوسية التي تعتقد أن شجرة التين شجرة مباركة وفي ظلها وتبنى تحتها أماكن العبادة، ويُوقد فيها المؤمنون المصابيح، كما أن بعض الجبال مثوى ومكان للآلهة وفيها تحكم وترتاح (فيني و وآخرين، 2006، صفحة 123).

أما الثروة الحيوانية فقد كانت ذات قيمة وقداسة أيضاً عند الهندوس لما أُخذت بعض الحيوانات كرموز للآلهة فكانت الفأرة تُكرم في المعابد من طرف عشائر كثيرة، ويقدم لها المؤمنون قطع الحلوى، أما الإله فيتجسد في عديد الأشكال الحيوانية كالسمك، والسلحفاة، والخنزير وفي مخلوق نصف إنسان ونصف أسد فهذه المخلوقات ليست الإله بل هي مظاهر طبيعية يتجلى ويتشكل فيها، حتى يتسنى له العيش في طبيعية ملموسة ، كما أن بعض البرهمان Brahmanيؤكدون على ضرورة التغذية النباتية والحيتان بدل الحيوانات (فيني و وآخرين، 2006، صفحة 124).

على الشاكلة نفسها في الديانة اليانية التي أسسها مهافيرا Mahavira ، نجد هذا الاحترام المبالغ فيه للحيوان حتى أنه بلغ مبلغ التقديس أيضاً إذ كان الرجل يدعو أتباعه بمهادنة الطبيعة ولو في أبسط الحركات كالانتباه للخطوات حتى لا يرفسوا المخلوقات الصغيرة أو الانتباه للقهقهة التي تعطي فرصة لتسلل الحشرات إلى الفم فتموت (شلبي، 1984، صفحة 113).

كما آمنت البوذية بأن جمال الطبيعة المحيطة بالإنسان هي علامة من علامات رضا الآلهة، ووفرة الحيوان والنبات النافع هي علامة على محبتها، لذا فالحيوانات يجب أن تُخدم وتُحترم حتى تدوم النعم، ويبقى والرضا وتتعايش الآلهة والبشر والطبيعة في ود متبادل كل فيها يقوم بدوره ويُكمل عمل الآخر (لفنسون، 2005، صفحة 59).

إن الملاحظ لهذه الفسيفساء القيمية الأخلاقية يجد أن الديانات الهندية القديمة تزخر بتعاليم بيئية خصبة تجاه كل المخلوقات الحيوانية حتى الضعيفة والمنبوذة من طرف الناس كالفأر. كما أنها لمحت ومهدت لظهور أفكار وميثولوجية أصيلة ومبدعة مثل فكرة الحلول التي تُؤمن بنزول الإله لعالم الواقع واتخاذه للموجودات كمحل يحل فيه.

كما مهدت هذه الديانات أيضا لظهور أفكار بيئية سليمة مثل: فكرة التغذية النباتية التي تناقض فكرة الإنسان المستهلك المستنزف للعنصر الحيواني من حوله، وقد أصبحت فيما بعد شعار دعاة مناضلي البيئة ومناضلي حقوق الحيوان وحمايته من الانقراض، ليس هذا فقط بل تفطنت لمستقبل العلاقة المتوترة بين الإنسان وبيئته فقد لمحت للشرور الإنسانية والأنانية المفطور عليها، كما لمحت أيضا للغضب الذي سيصيبه من طرف بيئته الطبيعية التي تتصف بالقوة والجبروت اللذان لا يطيقوهما البشر، لأن كل فعل له ردة فعل.

فأشاروا إلى الطوفان كرد فعل على تبذير الماء وتخزينه في سدود، وحرمان الضعفاء والماشية منه، كما أشاروا أيضا إلى الجفاف كرد فعل على غزو المحاصيل وسرقة الثمار، والبراكين كرد فعل

على نحت الجبال والبناء في بيوت النسور وكهوف الغابات، والاختناق والأوبئة كرد فعل حرق الأشجار والتدفئة بحطبها (فيني و وآخرين، 2006، صفحة 126/125).

للأسف تحققت معظم هذه النبوات وبات الإنسان المعاصر يعيش تحت تهديد الكوارث البيئية حتى عدت مصائبها شغله الشاغل، فانتشرت الأمراض التنفسية بسبب تلوث الجو، والأمراض الجلدية بسبب تلوث الماء والتربة، والسرطانات بسبب دخول العناصر الغير الطبيعية في التغذية والعقاقير المستعملة في الحياة اليومية وباتت التربة غير صالحة للزراعة بسبب المبيدات والنفايات الصناعية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حكمة وواقعية الطرح البيئي الهندي القديم الذي يتقاطع مع الفلسفة البيئة العميقة في تقديسه للعالم الطبيعي، وفي خوفها من طغيان الإنسان على المخلوقات الأخرى، كما أنها تشترك معها في الخوف من التسلط والفساد لأن الإنسان سيجني نتائج أفعاله ويتحمل مسؤوليته الكاملة بعد فساد موطنه.

3-4- جذور البيئة العميقة في حضارة بلاد الرافدين القديمة:

قبل التوغل في الفكر البيئي لدى هذه الحضارة يمكن أن نشير إلى عراقتها لأنّ الكثير من المؤرخين يعتقدون أنّ الشعوب التي سكنت ما بين النهرين هي السباقة في صنع الحضارة الإنسانية، رغم أنها لم تكن متجانسة من حيث النسب والأصل فقد كان هناك أربع شعوب كبرى هم: السوماريين والبابليين والأكاديين والأشوريين (معيرش، 2017، صفحة 83).

في واقع الأمر هذه التسميات دليل على أهمية البيئة في هذه الحضارة إذ نجد المحرك الحضاري الأول عندهم هما نهري دجلة والفرات وهذا يُلزم هذه الشعوب بمعرفة أهمية الماء وقيمته في الطبيعة، كما أن اهتمامهم بالحدائق والزراعة وتفننهم في صناعتها دليل آخر على ذوقهم البيئي السليم واحترامهم للحياة النباتية.

بالإضافة إلى هذا ترك البابليون ما يثبت أنهم توغلوا في المجال البيئي وخبروه وهذا لما استعملوا الأدوية ووصفات طبية للعلاج، وتشخيص نموذجي للأمراض، والألواح الطينية البابلية تشهد على هذا، كما أنها تشهد على العصر النباتي في العلاج، وغياب الكميائيات في الوصفات نهائيا، فقد استخدموا ما يقارب مئة وخمسين نباتا طبياً، وزرعوها كما أنهم دونوها وأوصوا بها، ثم استخلصوا ما يقارب مائتي وخمسين عقاراً من النباتات أيضاً (السامرائي، 2005، صفحة 42).

بالإضافة إلى ذلك نجد أشهر مشرعي هذه الحضارة وهو المشرع حمرابي (1793- 1750 ق م) يُجسد شخصية المهتم بالبيئة، ومازالت قوانينه تجسد مدى أهميتها في قانون المملكة البابلية فقد خص حمرابي ثمانية وخمسون قانون من أصل ثلاثمائة قانون لمصطلح عليه بشؤون الحقل والبساتين والبيت، ثم خصص ستة وثلاثين قانون تتعلق بأجور الحيوانات (حمرابي، 2007، صفحة 12/11).

وفي المجموع ما تحدث على الحقول والبساتين والحيوان، أربعة وتسعين قانون وهذا يقارب الثلث من قوانين المملكة، لهذا فلا يمكن أن نُغفل القيمة الكبرى لمقومات البيئة عند هذا المُشرع، كما أنه لا يمكن أن نتجاوز فطنة الرجل لدور المعالم البيئة في صنع الحضارة والاستقرار.

بصرف ذلك نجد مضمون هذه القوانين يرُكز على البيئة كعامل قائم بحد ذاته أي لم يوجد من أجل البشر ككائنات تتسلط عليه، أي كل ما فيها وجد من أجل نفسه ليقوم بدوره الذاتي ولغاية كونية عامة أما الإنسان فوظيفته تحقيق التجانس وعدم القضاء على التنوع الإنسان والسهر على تسهيل تكاثر كل مخلوق وعدم التعرض له بالقتل والصيد.

خلاصة القول أن الفكر الشرقي القديم كان فكراً ولاداً وكان مورداً غزيراً للفكر البيئي المحافظ على الموطن الطبيعي بعذريته، دون مراعاة الأنانية البشرية والنرجسية العرقية، والأطماع التوسعية الإنسانية لهذا كان مصدراً فكريا يُحاكى في نموذجيته الفكرية الهادفة، حتى نهلت منه مصادر الغرب واستفادت منه الفلسفات الإيكولوجية المعاصرة.

أما الانتقادات الذاتية التي يمكن أن نقدمها لبحثنا هذا هو، أن هذا الموضوع لا يمكن أن تناوله في مقال معدود الصفحات لأن إثبات الأصول الفلسفية التاريخية تحتاج إلى تتبع كبير، كما تحتاج لتحجيج مهم حتى تُثبت العلاقة الاتصالية التي نزعم أنها موجودة بين الفلسفتين.

كما أن هذا التطرق السريع للحضارات الشرقية المختلفة قد يؤدي إلى اختلال في المعنى العام، أين يكون اختصاراً مخلاً، وهذا ما حدث مع البيئة العمية.

4- خاتمة:

في الأخر يمكن أن نتوصل إلى النتائج التالية:

أن البيئة العميقة هي تيار فلسفي بيئي معاصر ظهر مع لفيلسوف النرويجي آرني نايس، وكان يهدف إلى تجاوز المفهوم الضحل في التعامل البيئة، أي تجاوز البحث الفلسفي من أجل الحفاظ على الجنس الإنساني دون غيره والتعامل مع العناصر الطبيعية كموجودات مستقلة في حد ذاتها.

أن الأفكار الجوهرية للبيئة العميقة ليست وليدة الفكر الغربي المعاصر ولم تُنتج في شرطية غربية فقط بل تأثرت بالعالم الشرقي القديم، الذي مثل أزهى الحقب البيئية.

أن الفكر المصري القديم كان يُؤمن بالطبيعة كعنصر مستقل لا يمكن السيطرة عليه ولا يمكن التحكم فيه أين كانت البيئة تنعم بأرق المراتب، فكان النيل سيداً يُحترم.

والحضارة الصينية القديمة وصفت الإنسان بالكائن العادي أين رفضت كل أنواع التسلط وكل أنواع الاستهلاك اللاعقلاني للخيرات الطبيعية.

والحضارة الهندية آمنت بأن الغابة موطن الآلهة، والحيوانات من بناتها وقد تكون صورة من صورها، وأن الشجرة موطن ومحل للعبادة فكانت الطبيعة سيدة والإنسان يتعامل معها بمنطق الحوار والتعامل المحترم وليس منطق الاستغلال والانتهاك.

أما حضارة بلاد الرافدين فقد أولت أهمية للنباتات والحيوانات وسنت القوانين التي تحافظ عليها ليست لأنها وسائل للعيش بقدر ما هي عناصر شريكة فيه.

وبعد كل هذا العرض التاريخي الجينيالوجي يمكن أن نتوصل إلى وجود تشابه يصل إلى حد التطابق بين الفكر الشرقي القديم والبيئة العميقة النايسية، أي يمكن أن نلاحظ تطابق الطرح العميق من حيث احترامه للتنوع والعيش المشترك تماما كما تم احترام الكائن الحي من قبله.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور. (د.س). لسان العرب. بيروت: دار لسان العرب.
2. أحمدى شلبي. (1984). أديان الهند الكبرى. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
3. إميل لود فيغ. (2017). النيل حياة نهر. (عادل زعيتر، المترجمون) المملكة المتحدة: الناشر مؤسسة هنداوي .
4. إيان ج . سيمونز. (1997). لبيئة والإنسان عبر العصور. (محمد عثمان، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.
5. تسوانغ تسه لاوتسه. (1995). كتاب الطاو. (هادي العلوي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار كنوز أدبية.
6. جبار رؤوف السامرائي. (2005). أول كتاب صيدلة في العالم. بيروت: دار الفرابي للنشر والتوزيع.
7. جيمس ب ستيربا. (2009). ثلاث تحديات أمام علم الأخلاق. (جوان صفير، المترجمون) بيروت: أكادمية أنترناسيونال.
8. حمرابي. (2007). شريعة حمرابي. (محمد أمين، المترجمون) لندن: دار الوراق للنشر المحدودة.
9. كتاب الموتى للمصريين القدماء. (2004). (زكيه طبوزادة، المترجمون) القاهرة: دار الفكر للدارسات والنشر والتوزيع.
10. كلود لفنسون. (2005). البوذية. (محمد على مقلد، جامع الكتاب) بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديدة المتحدة.
11. كومارسريفاستفا فيني، و وآخرين. (2006). الطبيعة. (عبد القادر قنيني، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي .
12. مصطفى حسن النشار. (2017). الفلسفة وقضايا العصر. (السعيد السيد حامد، جامع الكتاب) مصر: قطاع الكتب وزارة التربية والتعليم.
13. موسى معيرش. (2017). القيم في الفلسفة الشرقية إشكاليات وأعلام. بيروت: دار ابن النديم للنشر والتوزيع.
14. ميكال زيمرمان، و وآخرون. (2006). الفلسفة البيئية. الكويت: عالم المعرفة.
15. Arne Naess .(2008) .the ecology of wisdom .Edited by Alan Drengson.